«السياسة والوحي: الماوردي وما بعده» لحنا ميخائيل:

الجذور لا تتناقض مع الحداثة

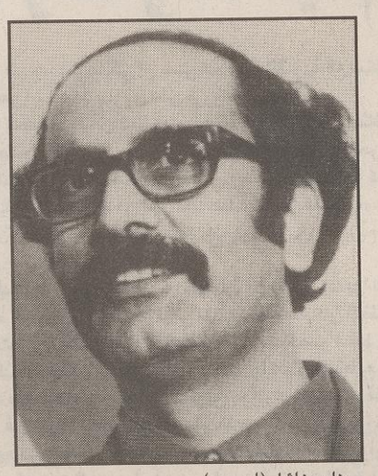

حنا ميخائيل (ابو عمر)

غلاف الكتاب

لندن ـ «القدس العربي»:

عن دار الطليعة للطباعة والنشر في بيروت صدرت اواخر الشهر الماضي الترجمة العربية «السياسة والوحي ـ الماوردي وما بعده» والذي هو بالاصل اطروحة الدكتوراه التي قدمها الشهيد حنا ميخائيل (ابو عمر) الى جامعة هارفارد الامريكية عام 1968، والتي كانت آنذاك واحدة من المساهمات الاكاديمية النادرة المقدمة من دارسين عرب لفكر الفقيه الاسلامي ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (364ـ450 هجري/ 975ـ1058 ميلادي) والذي من أشهر كتبه «الاحكام السلطانية» وهو مرجع هام عن الفكر السياسي السني بالعصر الوسيط وعن العلاقة بين السياسي والشرعي والديني.

ومع انه يصعب في هذا التقديم الموجز تناول الاسباب التي دفعت ابا عمر لاختيار هذا الموضع بالذات لاطروحة الدكتوراه، الا ان سيرة حياة المؤلف والتي كان النضال من اجل العدالة ذروتها تسمح بالقول اننا «لا نستبعد ان تكون دوافعه لاختيار موضوعه قد شملت دافعا تنبؤيا هدفه التحقق مما اذا كان الماضي يقدم معطيات لامكانية احياء النشاط الاسلامي، وبالتالي اذا كان هناك تتابع منطقي (ليس اصوليا ولا مذهبيا) يسمح بالبحث عن جذور لا تتناقض مع الحداثة او كل متطلبات الحداثة في المجال السياسي، يمكن رصده في تلك المعطيات» حسبما تقول رئيسة قسم الدراسات الشرقية في جامعة روما المستشرقة الايطالية بيانكا ماريا سكارسيا اموريتي التي وضعت مقدمة الكتاب بطبعتيه الانكليزية الصادرة عام 1995 عن مطبعة جامعة ادنبره او العربية التي نحن بصدد تقديمها.

وتضيف اموريتي بالقول «من ناحية ثانية، لابد ان يكون ميخائيل (ابو عمر) واعيا للجدل الذي بدأ في عهود الاستعمار واستمر في عهود الاستقلال الاولى خصوصا في العالم العربي، والذي دار حول التنديد بالانظمة السياسية الجائرة واعادة احياء المفاهيم التي تعتبر الثورة عليها واجبة».

نفس هذا الاستنتاج توصلت اليه في التوطئة التي وضعتها للكتاب جهان الحلو ميخائيل، زوجة الشهيد ابي عمر ورفيقة نضاله، التي لعبت دورا اساسيا في نشر الكتاب بعد استشارة اصدقاء مختصين رأوا ان الاطروحة ما زالت محتفظة بقيمتها الفكرية المتميزة رغم مرور قرابة 30 عاما على وضعها ورغم صدور كتب عديدة تتناول موضوعها منذ تقديمها للمرة الاولى عام 1968.

وبين هؤلاء المختصين المؤرخ المعروف الراحل البروفيسور البرت حوراني الذي اعتبر ان الكتاب «اكثر البحوث التي قرأتها عن الفكر السياسي السُني امتاعا.. احد اهداف ميخائيل الرئيسية هو ابراز كيف يمكن ان تتحول القوة مهما كان نوعها ومصدرها الى سلطة شرعية اذا مورست ضمن حدود الشريعة لضمان استمرارية الدين والعدل.. كتب باسلوب جميل وبلغة واضحة ودقيقة».

ولان ابا عمر كان يبحث عن العدل، وفي سبيله قضى نحبه عندما فقد مع رفاق له بالثورة الفلسطينية في ظروف غامضة خلال الحرب الاهلية في لبنان عام 1976، فقد كان طبيعيا ان يحتل موضوع العدل والجور (اللاعدل كما بالكتاب) حيزا رئيسا (حوالي 40 %) من متن كتاب «السياسة والوحي ـ الماوردي وما بعده».

هذا السعي الى العدل كان من بين اهم اسباب تحول حنا ميخائيل (ابي عمر) عن دراسة الكيمياء، التي حصل فيها على شهادته الجامعية لاولى، الى دراسة التاريخ الاسلامي، وهو المسيحي الذي تعلم في مدرسة تبشيرية مسيحية، باعتبار ذلك «ضروريا لشخص مثله كان بحاجة لمعرفة المزيد عن التقاليد التاريخية لشعبه وتراثه» كما يقول المفكر الفلسطيني الدكتور ادوارد سعيد في تقديمه لكتاب «السياسة والوحي» بطبيعتيه الانكليزية والعربية.

وفي تقديمه للكتاب يترك ادوارد سعيد مهمة عرض القضايا الرئيسية التي تناولتها الاطروحة للمختصين، وفي هذه الحالة الاستاذة الايطالية اموريتي، ويتناول الكاتب نفسه، الذي كان من بين اصدقائه الشخصيين، في سياق عرض موجز للعلاقة بين الفكر والسلطة، بين المثقف الملتزم صاحب الرسالة والسياسي الذي قد تهوي به السياسة الى مدارك التنازل المبدئي بالمسار والهدف عن القيم التي سعى المثقف الملتزم الى اعتمادها اساسا للممارسة النضالية واضاءة للهدف كيلا يضيع في زحمة وتعرج طريق الوصول اليه.

يقول ادوارد سعيد «تركزت حياة حنا ميخائيل (ابي عمر) كلها على راديكالية ثاقبة لا تقنع بالكليشيهات المبتذلة للسياسة كمشاريع اعمال، ولا تقنع بالشعارات الفارغة الديماغوجية الاحتفالية، وتزدري ضعف الكفاءة والمحاباة، لقد ايد حنا ميخائيل المبادىء والمثل ليست كافكار تجريدية وهمية، بل كتجليات في الحياة اليومية بين رجال ونساء عاديين.. كان مفكرا بحق ـ ما ذكرته عنه ليس وصفا عاطفيا او مبالغا فيه. فقد احتفظ دائما بتواضعه وبساطته الاصلية.. لكن كما ينبغي ان يكون عليه المفكر، عاش وفقا لافكاره ولم يفصل قيمه الديموقراطية والعلمانية لتناسب سادة جددا ومناسبات جديدة.. وبالنسبة لكل الفلسطينيين اليوم، وفي تناقض صارخ مع التنازل الكبير والاستسلام المذل لزعمائنا، يمثل حنا ميخائيل نموذجا لدور متميز، رجلا لم يحط من شأن نفسه او شعبه. لماذا؟ لانه عاش افكاره، ومات في سبيلها. هكذا بهذه البساطة، وبالمثل الذي ضربه يعطي حنا درسا لاولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعده».

يبقى اخيرا ان الفضل في ظهور «السياسة والوحي» بالعربية يعود الى عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين الذين ساهموا في اعداده للنشر ومنهم البروفيسور رضوان السيد الذي ساهم في تحديث المصادر ومراجعة الترجمة العربية، وكذلك البروفيسور عزيز العظمة لمراجعته النص وتحديث

حول التنديد بالانظمة السياسية الجائرة واعادة احياء المفاهيم التي تعتبر الثورة عليها واجبة».

نفس هذا الاستنتاج توصلت اليه في التوطئة التي وضعتها للكتاب جهان الحلو ميخائيل، زوجة الشهيد ابي عمر ورفيقة نضاله، التي لعبت دورا اساسيا في نشر الكتاب بعد استشارة اصدقاء مختصين رأوا ان الاطروحة ما زالت محتفظة بقيمتها الفكرية المتميزة رغم مرور قرابة 30 عاما على وضعها ورغم صدور كتب عديدة تتناول موضوعها منذ تقديمها للمرة الاولى عام 1968.

وبين هؤلاء المختصين المؤرخ المعروف الراحل البروفيسور البرت حوراني الذي اعتبر ان الكتاب «اكثر البحوث التي قرأتها عن الفكر السياسي السُني امتاعا.. احد اهداف ميخائيل الرئيسية هو ابراز كيف يمكن ان تتحول القوة مهما كان نوعها ومصدرها الى سلطة شرعية اذا مورست ضمن حدود الشريعة لضمان استمرارية الدين والعدل.. كتب باسلوب جميل وبلغة واضحة ودقيقة».

ولان ابا عمر كان يبحث عن العدل، وفي سبيله قضى نحبه عندما فقد مع رفاق له بالثورة الفلسطينية في ظروف غامضة خلال الحرب الاهلية في لبنان عام 1976، فقد كان طبيعيا ان يحتل موضوع العدل والجور (اللاعدل كما بالكتاب) حيزا رئيسا (حوالي 40 %) من متن كتاب «السياسة والوحي- الماوردي وما بعده».

هذا السعي الى العدل كان من بين اهم اسباب تحول حنا ميخائيل (ابي عمر) عن دراسة الكيمياء، التي حصل فيها على شهادته الجامعية لاولى، الى دراسة التاريخ الاسلامي، وهو المسيحي الذي تعلم في مدرسة تبشيرية مسيحية، باعتبار ذلك «ضروريا لشخص مثله كان بحاجة لمعرفة المزيد عن التقاليد التاريخية لشعبه وتراثه» كما يقول المفكر الفلسطيني الدكتور ادوارد سعيد في تقديمه لكتاب «السياسة والوحي» بطبيعتيه الانكليزية والعربية.

وفي تقديمه للكتاب يترك ادوارد سعيد مهمة عرض القضايا الرئيسية التي تناولتها الاطروحة للمختصين، وفي هذه الحالة الاستاذة الايطالية اموريتي، ويتناول الكاتب نفسه، الذي كان من بين اصدقائه الشخصيين، في سياق عرض موجز للعلاقة بين الفكر والسلطة، بين المثقف الملتزم صاحب الرسالة والسياسي الذي قد تهوي به السياسة الى مدارك التنازل المبدئي بالمسار والهدف عن القيم التي سعى المثقف الملتزم الى اعتمادها اساسا للممارسة النضالية واضاءة للهدف كيلا يضيع في زحمة وتعرج طريق الوصول اليه.

يقول ادوارد سعيد «تركزت حياة حنا ميخائيل (ابي عمر) كلها على راديكالية ثاقبة لا تقنع بالكليشيهات المبتذلة للسياسة كمشاريع اعمال، ولا تقنع بالشعارات الفارغة الديماغوجية الاحتفالية، وتزدري ضعف الكفاءة والمحاباة، لقد ايد حنا ميخائيل المبادىء والمثل ليست كافكار تجريدية وهمية، بل كتجليات في الحياة اليومية بين رجال ونساء عاديين.. كان مفكرا بحق - ما ذكرته عنه ليس وصفا عاطفيا او مبالغا فيه. فقد احتفظ دائما بتواضعه وبساطته الاصلية.. لكن كما ينبغي ان يكون عليه المفكر، عاش وفقا لافكاره ولم يفصل قيمه الديموقراطية والعلمانية لتناسب سادة جددا ومناسبات جديدة.. وبالنسبة لكل الفلسطينيين اليوم، وفي تناقض صارخ مع التنازل الكبير والاستسلام المذل لزعمائنا، يمثل حنا ميخائيل نموذجا لدور متميز، رجلا لم يحط من شأن نفسه او شعبه. لماذا؟ لانه عاش افكاره، ومات في سبيلها. هكذا بهذه البساطة، وبالمثل الذي ضربه يعطي حنا درسا لاولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعده».

يبقى اخيرا ان الفضل في ظهور «السياسة والوحي» بالعربية يعود الى عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين الذين ساهموا في اعداده للنشر ومنهم البروفيسور رضوان السيد الذي ساهم في تحديث المصادر ومراجعة الترجمة العربية، وكذلك البروفيسور عزيز العظمة لمراجعته النص وتحديث مصادره، والاستاذ فالح عبد الجبار الذي قام ايضا بمراجعة النص واحكام الترجمة العربية التي قام بها شكري رحيم. وقد جاء الكتاب في 175 صفحة من القطع الصغير وفي غلاف وضعه الفنان الفلسطيني كمال بلاطة.